الإسلام والعنصرية

يسمح لجميع الجماعات والمراكز الإسلامية في أنحاء العالم طبع هذا الكتاب وترجمته للغات المحلية بدون الرجوع للمؤلف ، وكذلك طلب نسخ مجانية لهذا الغرض .

كما يحق لجميع المكتبات العامة بمختلف أنواعها طلب نسخ مجانية من هذا الكتاب وذلك عن طريق الكتابة للمؤلف على عنوانه التالي :

المملكة العربية السعودية

المدينة المنورة

ص . ب ٢٥٥٣٨

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل ، ، ، ، ،

الإسلام والعنصرية

وتفاضل القبائل وذوي الألوان

في ميزان الإسلام

تأليف

عبد العزيز عبد الرحمن قارة

قدم له

سماحة العلامة الشيخ

أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار البشير

جدة

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤١٦
١٩٩٥

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندْوي[١]

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد ورد في كتاب الله تعالى وفي حديث رسوله الكريم ﷺ تأكيد شديد على التآخي بين المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وجاء في الحديث الشريف : « المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، وجاء في حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولقد ربط الله تعالى المسلمين جميعاً في رباط واحد ، وجعلهم تابعين للأمير ،

---

(١) سماحة الشيخ أبي الحسن عَلَم من أعلام العلم والدعوة إلى الله تعالى ، في هذا العصر، على ساحة العالم الإسلامي كله ، وهو أشهر وأكبر من أن يعرَّف به ، إنما أحب أن ألفتَ النظر إلى جانب واحد في شخصه حفظه الله تعالى ، هو أنه عربي قرشي هاشمي سيد شريف من سلالة آل البيت النبوي الطاهر ، ومع ذلك يرى القارىء الكريم تأكيده على وحدة الإسلام وتآخيهم ، وأن المناداة بالعرقية تمزيق وتشتيت لهم . بل إن هذا المعنى موجود في كتاباته كثيراً جداً .

وأمر آخر يتعلق بكلمته هذه ، لقد قدمت إلى سماحة الشيخ نسخة من الطبعة الأولى لهذا الكتاب الذي صدر باسم « الأخوة الإيمانية » فقرَّظه بهذا الاسم ، ولما زدت عليه شيئاً كثيراً يتعلق بالعنصرية اضطررت إلى تغيير اسمه إلى « الإسلام والعنصرية » ، ولم أشأ تغيير شيء في كلام الشيخ حفظه الله وأمتع به الإمة . المؤلف

وبذلك يتحد اتجاههم ، ويسير أمرهم على خط واحد ، وتكون عداوتهم واحدة ، وصداقتهم واحدة ، فتصبح قوتهم الصغيرة مع التضامن فيما بينهم قوة كبيرة ، وتأثيرهم مع وحدتهم تأثيراً كبيراً ، ودام العز والسلطان ما دام فيهم الالتزام بوحدة أطرافهم وعناصرهم المختلفة ، وإن كان ذلك في نطاق محدود .

وبهذه القوة دام سلطان المسلمين في الأندلس نحو سبعة قرون ، ولما تفرقوا على الأسر والقبائل ، بل تشتتوا لأغراضهم الشخصية تحطمت قوتهم ، وأجبرهم عدوهم على التنازل عن السياسة ، وتجرعوا المرارة في شبه الجزيرة الخضراء ، وهكذا كانت ودامت للمسلمين الشوكة والقوة حتى بلغ نفوذهم إلى قلب أوروبا ، ولكن تفرقت القوة الإسلامية الجبارة على النعرات القومية : العربية والتركية والكردية والبربرية وغيرها من النعرات الإقليمية والعنصرية ، فصار المسلمون دويلات حقيرة وأصبحوا كالريش في مهب الرياح . هذا من ناحية وضعهم بالنسبة إلى غيرهم .

أما وضعهم الداخلي فهو مؤسف جداً أيضاً : القادة يتقاتلون فيما بينهم لإحراز القيادة ، وأصحاب العلم يتهارشون فيما بينهم لإحراز المناصب ، والعامة منهم يتخاصمون لطلب المنافع الشخصية ، ثم قد يصبح كل واحد من هؤلاء المستهدِفين الهدفَ المادي أو تحقيق الهوى الفردي فريسة المكائد الخارجية والمؤامرات الأجنبية .

لقد كانت الأخوة الإسلامية أقوى سلاح في صورة وحدتها السياسية لصيانة المسلمين من عداوة الأعداء وردع هجماتهم ، وفي صورة الأخوة الداخلية لتعاونهم وتضامنهم مع أنفسهم ، فكان القليل منهم بهذه الأخوة كثيراً ، وكان الضعيف منهم مع هذه الوسيلة قوياً ، وكان الفقير منهم مع هذه الوسيلة غنياً ، وكان العاجر منهم مع هذه القوة قادراً .

إن الأخوة الإسلامية دامت خصوصية متميزة للمسلمين ، عرفهم بها أعداؤهم ، وهابوهم على أساسها ، ولا يزالون يحذرون من عودتها إليهم ، ويتوجسون خوفاً

من ظهور آثارها وبقاياها فيهم ، لأنها لم تمت فيهم بل إنما انهارت وضعفت ، يمكن إثارتها وتحريكها ، فأعداؤهم يخافون من يقظتها وعودتها ، ولذلك يقومون بالمكائد ، ويحيكون المؤامرات لقمع هذه الخصوصية منهم ، فيثيرون خلافات داخلية في شعوب الإسلام ، وخلافات شخصية بين قادة المسلمين ، ويناصرون أطراف النزاع فيزيدون بذلك تفرقاً وتعادياً فيما بين المسلمين وبذلك يسهل لأعداء الإسلام الحصول على مكاسب ، ويتيسر لهم الاستغلال من الوضع العدائي بينهم .

نجد أمثلة لذلك واضحة في منطقة الشرق الأوسط وآسيا الغربية ، وفي مناطق أخرى يقطنها المسلمون كأغلبيات ، ولم يعد الأمر قاصراً بأغلبيات المسلمين ، بل إنما توجد آثاره وتأثيراته في الأقليات المسلمة كذلك ، فإنهم مواجهون في كل مكان لمؤامرات الأعداء الذين يستغلون هذا التفرق بين صفوف المسلمين ، وهذا الفراغ من الأخوة الإسلامية .

ولقد تجاوز الأمر حدود مكائد العدو ومؤامراته حتى إن المسلمين هم أنفسهم يلعبون هذا اللعب الخطير ، لعب تشتيت أخوة المسلمين وتفريق وحدتهم ، ويقومون بالخصومات الشخصية إلى حد القتل والسلب ، وقد بلغ بهم الأمر إلى حد أنهم لم يعودوا يستحيون من الذهاب إلى خصوم الإسلام وإلى المحاكم الكافرة والمعاندة للإسلام ليدينوا بمساعدة خصومهم من أبناء أمتهم ، ويسعى بعضهم ضد بعض لكسر قوته وتحطيم عزته ، إنه يبني بذلك لنفسه وحدها قوة على أنقاض قوة أخيه ، ويبني لنفسه عزة على أنقاض عزة أخيه ، ولا يبالي المسلمون بأن القضاة في المحاكم هم محايدون أو معاندون للإسلام وأعداء له ، وبأن أعداءهم يضحكون عليهم ، وبسبب هذا الوضع المؤسف انتشرت الشحناء والبغضاء في قلوب المسلمين بعضهم لبعض ، إلى أن بلغ الأمر إلى حد الأسى الشديد والرثاء المؤسف ! .

إنه يجب في هذه الحالة أن يشمر الدعاة والمصلحون عن ساق الجد ، و ينادوا

المسلمين للعودة إلى وحدتهم وأخوتهم التي هي من واجبات دينهم وأمتهم ، والتي هي من أوامر ربهم وشريعتهم ، ومن توجيه نبيهم وأئمة دينهم ، فإنه من أوجب الواجبات في هذا العهد الذي أصبح فيه المسلمون كالقصعة التي تداعى عليها الأكلة ، وكغثاء السيل ، كما أخبر به الصادق المصدوق رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ .

ولا يزال المسلمون يمتازون - رغم تهاونهم في الدين وتكاسلهم في اختيار أسباب الوحدة والأخوة بشيء من التآخي ، وهذا التآخي القليل ينفعهم في بقاء صورة من العز والقوة فيهم يحسدهم عليها الكفار ويسعون لتفتيتها ، فعلى المسلمين أن ينتبهوا للمؤامرة ويرجعوا إلى ما أمر الله تعالى به وقام رسوله ﷺ بتطبيقه ، وقد قام الرسول ﷺ بتطبيقه في مجتمع المدينة المنورة حيث جعل المهاجرين والأنصار إخوة فيما بينهم ، فكان كل مهاجري أخاً لأنصاريّ ، وقد قام كل أخوين لهذا الارتباط بأخوة أشد من أخوة الدم والنسب ، وكما جعل الله تعالى أخوة الإسلام من أجزاء الإيمان حيث قال رسوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهذه الأخوة حينما تبلغ درجتها العالية فإنها تصبح قوة هائلة تتحطم عليها مكائد الأعداء ، وتسري هذه الأخوة في كافة جوانب الحياة الاجتماعية وتربطها برباط واحد ، وتنحل كثير من قضاياهم بدون المرافعة إلى القاضي بهذه الأخوة ، وهذه الأخوة نعمة اجتماعية عظيمة للمسلمين ، فكلما ضعفت وهانت فيهم خسروا خسراناً كبيراً ، والتاريخ شاهد على ذلك ، والقرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ يذكرانا أهميتها وفائدتها ، ويذكران صورها وأحوالها المختلفة ويعطيان أحكاماً واضحة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وإنه لمن بواعث سرورنا أن نرى عالماً خبيراً بنظرة الإسلام إلى الوحدة ، وباحثاً إسلامياً وهو سعادة لواء متقاعد الشيخ عبد العزيز عبد الرحمن قارة يؤلف كتاباً جليلاً في هذا الموضوع بعنوان « الأخوة الإيمانية » فإنه تضمن تذكيراً وإيضاحاً لما

أوجبه الإسلام على المسلمين من الالتزام بالأخوة الإسلامية لأنها أمر شريعتهم ، ووجدوا التأكيد به مراراً وتكراراً في كتاب الله عز وجل ، وفي حديث رسوله محمد ﷺ ، ولقد ساق أمثلة مؤثرة ، وشرح جوانب مهمة لهذه الأخوة ، وكل ذلك مستند إلى مآخذ ومصادر موقرة ، فإن هذا الكتاب يسد حاجة كبيرة للمسلمين ، ويجب أن تأتي على منواله كتب أخرى ، وأن تعمم في المسلمين هذه الجهود ، فيعم بها النفع ، والله هو الموفق ، وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه .

١٢-١٠-١٤١٥

السيد

أبي الحسن علي الحسني الندوي

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته وهديه أجمعين .

وبعد : فهذه هي الطبعة الثانية من كتابي « الأخوة الإيمانية » باسمه الجديد « الإسلام والعنصرية » مع مزيد من الإضافات وقفت عليها أثناء مطالعاتي ، ومزيد من التعديلات استجابة وبياناً لما اشتبه على بعض قراء الكتاب ، جزاهم الله خيراً .

ولا بد من التنبيه في مقدمة هذه الطبعة إلى أمر ما كنت أظن أنه يخفى على القارىء الكريم ، فإذا بي أجدني مضطراً إلى بيانه .

ذلكم أن ما أنعاه على القَبَليَّة والقَبَليين ، والعنصرية والعنصريين إنما هو تحزُّبهم لذلك ، دون التفات منهم إلى شرع الله الحنيف ! فالمقياس عندهم نعرتهم وعنصريتهم ، وتعاليهم بها على عباد الله الآخرين ! فالأخوة عندهم لمن كان من قبيلتهم ، أو جماعتهم ، أو بلدهم ، أو على مذهبهم ونزعتهم ! لها يتعصبون ، ومن أجلها يعملون ، وفي سبيلها يقاتلون !! .

أما أني أذمُّ القبائل والشعوب ، وأقدح في الأعراق والأنساب ، وما إلى ذلك ، فمعاذ الله وحاشا لله !! .

ولست بغافل - والحمد لله - عن فضائل العرب عامة ، وعن بعض قبائلهم وأفخاذهم خاصة ، كقريش ، وبني هاشم ، وآل بيت النبوة الأطهار ، وفضائل المهاجرين والأنصار ، وبني أسلم وغفار ، وبني تميم وعبد القيس وغيرهم ممن صحت فيهم الأخبار - ما اتقوا واستقاموا - .

لكن من ينتمي إلى قبيلة من هؤلاء ، وينصرهم ظالمين أو مظلومين ، محقين أو مبطلين ، وينسى إسلامه وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فهذا الذي أوجه إليه كتابي وكلَّ ما فيه من لوم وعتب ! لأنه نسي الانتصار لمحمد ﷺ والكتاب الذي أنزل عليه ، وراح يتعصب لزيد وعمرو ! .

لأنه نسي تشريع محمد ﷺ الذي أكرم قبيلته بالثناء عليها ! .

لأنه نسي اتباع محمد ﷺ وهو الذي شرَّف آل بيت النبوة بانتمائهم إليه ! .

إنه يريد أن يمشي وراء قوميات ونعرات جاهلية وضعها جدُّه وسيده محمد ﷺ تحت قدميه ، ولا يريد أن يدعو - أو أن ندعو نحن - إلى جمع شمل مليار ونصف مليار من المسلمين على وجه هذه المعمورة .

وما أجمل قوله وتشبيهه ﷺ - بأبي هو وأمي - حين سمع منادياً ينادي : يا آل فلان ، يا آل فلان ، فقال معلِّماً وزاجراً : « دعوها ، فإنها منتنة! » .

وأي مسلم عاقل يرى هذا التجمع الرهيب من كفار الشرق والغرب ، على المسلمين ، ثم لا يرضى عن دعوتنا إلى « الأخوة الإيمانية » !! .

اللهم فاشهد ! .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ٣/٦/١٤١٥هـ عبد العزيز قارة

بسم الله الرحمن الرحيم

التقدمة :

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين وجعلهم كالجسد الواحد ، وكالبنيان المرصوص ، بعد أن كانوا قبل إسلامهم أعداءً لبعضهم ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون دماءهم لأتفه الأسباب .

والحمد لله كثيراً حيث جعل المؤمنين متحابين فيما بينهم ، متراحمين متآلفين متعاونين ، يؤثر بعضهم بعضاً ، ويتحملون إساءة بعضهم لبعض، ويعفو بعضهم عن بعض ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، مما أهَّلهم ليكونوا سادة العالم وقادته وهداته ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيد فينا هذه الصفات الخالدة .

وبعد : فإن هذا البحث قد كتب لإخوان لنا في الإسلام ، موزَّعين في أنحاء العالم الإسلامي وأرجائه المترامية ، تراهم متمسكين بالإسلام جداً غيورين عليه ، مستعدين للموت في سبيله كل لحظة ! لكن لبعدهم عن بلاد الإسلام الآهلة بالعلم والعلماء تسيطر عليهم أفكار ناشئة عن عادات قبلية تكوَّنت لديهم ، فأبعدتهم عن تعقُّل هذا الإسلام تماماً وفهم روحه وجوهره .

أَثَّرت عليهم العادات القبلية ، وسيطرت عليهم العصبيات الجاهلية ، بحيث أصبحت توازي غيرتُهم عليها غيرتهم على دينهم وإسلامهم أو تزيد !! .

وكما أننا نراهم يقدِّمون دماءهم في سبيل إسلامهم أمام الكافرين نراهم يقدمونها أيضاً في سبيل العنصريات والعصبيات الجاهلية أمام القبائل الأخرى سواء كانوا كافرين أو مسلمين ! .

وترى هذه العنصريات القَبَلية منتشرة في كثير من البلاد الإسلامية وقد أدت إلى إزهاق أرواح كثيرة من البشر مما دفعني لكتابة هذا البحث الموجز لهؤلاء الإخوة على أمل أن يقوم علماؤهم بترجمته للغاتهم بعد أن يتم توزيعه على علمائهم وطلبة العلم منهم باللغة العربية .

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به جميع المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

المدينة المنورة ٩/ ٢/ ١٤١٤هـ — عبدالعزيز عبدالرحمن قارة

* * *

الفصل الأول
كيف عالج القرآن الكريم العنصرية بأنواعها

كلكم لآدم فلا تفاوت

البشر كلهم لآدم عليه السلام ، هذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

إنها حقيقة يؤمن بها كل من آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، بل تؤمن بها جميع الأديان السماوية السابقة .

ومع هذا فمن العجب أن نجد نحن المسلمين من بيننا من يعتقد أن أصله أفضل ، أو أن جنسه أرقى .

آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه

إن الله سبحانه وتعالى فاضل بين الناس في أمور كثيرة في الإيمان والكفر في العلم والجهل ، في الغنى والفقر ، في الجمال والقبح ، في القوة والضعف ، في الذكاء والغباء ، ولكن ليس في الأصل والنسب ، وهذه الصفات التي يتفاضل الناس بها من علم ورزق وجمال وقوة وغيرها، موجودة في كل شعب ، وفي كل قبيلة ، وفي كل مدينة وبلد وقرية في العالم كله ، وهي من آيات الله سبحانه وتعالى . حتى بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، قال تعالى : ﴿ ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٣) .

والله سبحانه وتعالى جعل البشرية شعوباً وقبائل للتعارف والتآلف ، والتعاون والتحاب .

والمسلم لايحتقر الإنسان غير المسلم لشخصه ، بل يحتقر اعتقاده إذا كان مشركاً أو كافراً ، بدليل أنه إذا أسلم المشرك أو الكافر أصبح أخاً للمسلم على الفور ، بل إن المسلم مكلف أن يهجر أخاه المسلم إذا كان مجرماً أو عاصياً أو منحرفاً أو ظالماً أو خائناً حتى لو كان من قبيلته أو عائلته أو أبنائه ، ويصبح أحب الناس إليه إذا توقف عن ذلك وتاب إلى الله .

التقسيم الرباني للبشر كما جاء في القرآن الكريم

لقد سوّى الإسلام بين بني البشر ، وقرّر وأكّد المساواة الكاملة بين الجميع ، وليس هناك مايسمى (طبقية) داخل المجتمع الإسلامي ، فالجميع متساوون في الحقوق والواجبات ، وليس هناك ميزة لأحد على الآخر إلا بالتقوى ، فمن كان أكثر عبادة أو عملا لمصلحة الإسلام ، أو جهاداً في سبيله بنفسه أو بماله أو بهما معاً للدعوة إلى الله ، فهو الأفضل والأكرم عند الله ، وعندما يقوم بهذه الأعمال السامية ليس له فضل على الناس ، لأن هذه الأعمال ابتغى بها وجه الله سبحانه وتعالى ، وليس ليتفاضل بها على الآخرين ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(١) .

يقول الله سبحانه وتعالى أول سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

(٢) سورة النساء ، الآية (١) .

يقول سيد قطب رحمه الله تعليقاً على هذه الآية في كتابه الشهير « في ظلال القرآن » بعد شيء من الاختصار :

هذه الآية العظيمة الكريمة التي ابتدأت بها سورة النساء ترد الناس إلى رب واحد وخالق واحد وأسرة واحدة ، وتجعل وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة ، وتستجيش في النفس تقوى الرب ورعاية الرحم. . . ، لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة ، ثم في الإنسانية الواحدة ، وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التي تنظمها السورة .

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة لهي حقائق كبيرة جداً ، وعميقة جداً وثقيلةٌ جداً. . . ، ولو ألقى الناس أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم ، وبنقلهم من الجاهلية أو من الجاهليات المختلفة إلى الإيمان والرشاد والهدى ، وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة بالناس والنفس ، واللائقة بالخلق الذي ربُّه وخالقه هو الله .

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى :

١- إنها ابتداء تذكر الناس بمصدرهم الذي صدروا عنه ، وتردهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض. . . هذه الحقيقة التي ينساها الناس فينسون كل شيء ! ، ولا يستقيم لهم بعدها أمر ! .

إن الناس قد جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه. . . ، فمن الذي جاء بهم ؟ إنهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم ، فقد كانوا - قبل أن يجيئوا - عدماً لا إرادة له. . . .

٢- كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة ، تتصل في رحم واحدة ، وتلتقي في وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . ﴾[1] .

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية ، وصلة النفس وحقها في المودة ، وصلة الربوبية وحقها في التقوى .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الصراع العنصري ، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى هذه اللحظة الحاضرة ، في الجاهلية الحديثة ، التي تفرق بين الألوان ، وتفرق بين العناصر ، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة ، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم ، وتنسي النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً كذلك باستبعاد الاستعباد الطبقي السائد في وثنية الهند ، والصراع الطبقي الذي تسيل فيه الدماء أنهاراً ، في الدول الشيوعية ، والذي ماتزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية ، ونقطة انطلاقها إلى تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة ، ناسية النفس الواحد التي انبثق منها الجميع ، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع ! .

٣- والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴾ ، كانت كفيلة - لو أدركتها تلك البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطار الأليمة ، التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتى

---

(١) سورة النساء ، الآية (١) .

التصورات السخيفة ، تراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء... وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً ، خلقها الله لتكون لها زوجاً ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، فلافارق في الأصل والفطرة ، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة....

٤- كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة ، فخلق ابتداءً نفساً واحدةً ، وخلق منها زوجها ، فكانت أسرة من زوجين ، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً ، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق ، لا رحم بينها من مبدأ الأمر ، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد ، وهي الوشيجة الأولى ، ولكنه سبحانه شاء - لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها - أن يضاعف الوشائج ، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية - وهي أصل وأول الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولى من ذكرٍ وأنثى - هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة - ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساءً ، كلهم يرجعون ابتداءً إلى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة ، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة .

إبليس أول عنصري يستكبر عن أمر ربه ويدَّعي أنه الأفضل

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1] .

هذه القصة ، قصة إبليس وآدم ، ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة ، وفي أول سورة الأعراف ، وفي سورة الحجر ، والإسراء والكهف ، وهاهنا في سورة ص ، وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم الأمرُ متى تم خلقه وتسويته فليسجدوا له ، إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله تعالى عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس – ولم يكن منهم جنساً – ، كان من الجن ، فخانه طبعه ، وجبلته أحوجَ ماكان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل ، وادعى أنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، فقد خالف أمر ربه وكفر بذلك ، فأبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته وحضرة قدسه ، وسماه إبليس ، لأنه قد أُبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض .

لقد رفض إبليس السجود حسداً لآدم ، واحتقاراً له ، لأنه اعتقد أنه أفضل منه حيث قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ أفضل منه في الأصل وفي العنصر حسب اعتقاده . إذاً فإبليس لعنه الله أول العنصريين، وأول من أوجد العنصرية ، عنصرية التفاضل ، وعنصرية الجنس ، حيث أراد أن يميز ويفضل نفسه على آدم عليه السلام .

والفرق بين إبليس والعنصريين من البشر ، أن إبليس ادَّعى أنه خُلِقَ من

---

(١) سورة ص ، الآيات (٧١-٨٦) .